القسم الدراسى

الفصل الأول

المؤلف وعصره

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة السياسية فى عصر الصفدى

الفترة التاريخية التى عاشها الصفدى تمثّل عصرى الازدهار والانحدار فى « **دولة المماليك البحرية الصالحية** » [١] والحديث عن تاريخ تلك الفترة يكشف الإطار العام لحياة الصفدى باعتباره واحدا من أمراء المماليك ، ومن كبار موظفى دولتهم الذين يتاح لهم - عادة - الاطلاع على شئون الملك وأسراره ، والإسهام فى كتابة وثائقه ، وتسجيل وقائعه ، وبخاصة ؛ لكونه شاهد عِيَان ومؤرخا ثبتًا ، وناقدا بصيرا .

كان الملك الأشرف [٢] فى رحلة صيد حينما فاجأه نائبه بَيْدَرَا [٣] بضربة بالسيف قطعت يده ، ثم أجهز عليه ، واستطاع مماليك الأشرف خليل قتل بَيْدَرَا ، ثمَّ بايعوا أخاه الأصغر محمدا ، ولقّبوه « الملك الناصر » [٤] .

لم يستطع الملك الناصر أنْ ينهض بأعباء الحكم ؛ لصغر سنّه فعزله الملك العادل [٥]

---

(١) لم يكن معظم سلاطينها من المماليك البحرية . انظر : قيام دولة المماليك الأولى ، للعبادى ٧، والعصر المماليكى ، لسعيد عاشور ٥ .

(٢) صلاح الدين ، خليل بن قلاوون (٦٦٦ - ٦٩٣ هـ) تاسع سلاطين المماليك ، طهَّر الشام من الصليبيين ، واستعاد عكا . انظر : دول الإسلام ، للذهبى ٢ / ١٩٤ ، والوافى بالوفيات ١٣ / ٣٩٩ ، والأعلام ٧ / ١١ .

(٣) بدر الدين ، بَيْدَرَا (ت ٦٩٣ هـ) كان أعز الناس عند أستاذه الملك المنصور قلاوون ، جعله الأشرف أتابكه ، ولكنه خرج عليه ، وقتله .

انظر : دول الإسلام ٢ / ١٩٥ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٣٦٠ .

(٤) أبو الفتوح ، ناصر الدين ، محمد بن قلاوون (٦٨٤ - ٧٤١ هـ) أعظم سلاطين المماليك ، وفى سيرته كتب اليوسفى « نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر » . انظر : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٣٠ ، ووفيات السلامى ١ / ٣٨٨ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٣ ، والأعلام ٧ / ١١ .

(٥) زين الدين كَتْبُغَا بن عبد الله ، المنصورى (٦٣٩ - ٧٠٢ هـ) من سبى التتار وكان - مع شجاعته - يعْوِزُه رأى وحزم . انظر : تحفة ذوى الألباب ، للصفدى ٢ / ١٩٣ ، والبداية والنهاية ١٣ / ١٣٨ ، والأعلام ٥ / ٢١٩ .

وحبسه فى القلعة ، واستطاع حسام الدين لاجين [١] الاستيلاء على العرش ، ولكنه قُتِل ، على يد الملك القاهر [٢] الذى لقى حتفه بعد أربعة أيّام ، وأعيد الناصر للمرة الثانية .

لم يستطع الناصر السيطرة على أمراء المماليك ، فعاش مُضَيَّقًا عليه ، فأبدى رغبته فى أداء فريضة الحج ، واتّجَه إلى الكَرَك [٣] وخَلَع نفسه ، وأرسل إلى المماليك بما عزم عليه ، وطلب إليهم أنْ يختاروا غيره سلطانا عليهم .

اختار المماليك الملك المظفر [٤] ، وأجلسوه على العرش ، فى شهر شوال من عام ٧٠٨ هـ ، وشاء الله سبحانه وتعالى أنْ ينخفض ماء النيل ، وتقلّ الأقوات ، وترتفع الأسعار ، وتسوء حالة الناس فى مصر ؛ فرفض أمراء الشام مبايعة المظفّر ، وجدَّدُوا البيعة للناصر فسار فى عسكر الشام قاصدا مصر ، فهرب المظفّر ، ثم قُتِل .

عاد الناصر إلى عرشه للمرة الثالثة ، فى شوّال من سنة ٧٠٩ هـ ، وقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وأصبح قادرا على مباشرة شئون الحكم بنفسه ، وفَرْض كلمته على الأمراء ، وحكم البلاد بلا منازع اثنتين وثلاثين سنة ، ويكاد يجمع المؤرخون على أنَّ عصر الناصر أعظم عصور تاريخ مصر ، فى أيّام المماليك ، فامتد نفوذه من المغرب غربا إلى الشام والحجاز شرقا ، ومن النوبة جنوبا إلى آسيا الصغرى شمالا .

أفاضت كتب التاريخ فى الحديث عن الناصر ، وبيان غزواته ، وبطولاته ،

---

(١) لاجين بن عبد الله ، المنصورى ، الملك المنصور (٦٣٥ - ٦٩٨ هـ) كان أعدل سلاطين المماليك ، وأتقاهم . انظر : تحفة ذوى الألباب ٢ / ١٨١ ، وأعيان العصر ٤ / ١٦٥ ، وإعـــلام الورى ٨ ، وشذرات الذهب ٥ / ٤٤٠ ، ومصر والشام ٢٠٦ ، والأعلام ٥ / ٢٣٨ .

(٢) سيف الدين ، طُغْجِى (ت ٦٩٨ هـ) وقتل بعد أربعة أيام من توليه السلطنة وقد نيّف على الثلاثين . انظر : كنز الدرر ٨ / ٣٧٧ ، والوافى بالوفيات ١٦ / ٤٥٢ وتذكرة النبيه ١ / ٢١٢ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٨٣ .

(٣) الكَرَك : قلعة حصينة من نواحى البلقاء . انظر : معجم البلدان ٤ / ٤٥٣ .

(٤) ركن الدين ، بَيْبَرْس ، الجاشنكير ، المنصورى (ت ٧٠٩ هـ) شركسى الأصل ، كثير الخير والبر، محمود السيرة . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ٣٤٨ ، والمنهل الصافى ٣ / ٤٦٧ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٨ ، والأعلام ٢ / ٧٩ .

وتعديد عماراته ، وإصلاحاته ، ووصف أخلاقه ، فقد كان ملكا عظيما ، محظوظا ، مطاعا ، وبوفاته فى ذى الحجة من سنة ٧٤١ هـ بدأ عصر الانحدار فى حكم أسرة قلاوون ، وكان قد أوصى قبيل وفاته باختيار ابنه أبى بكر [١] ولم يحكم إلاّ شهرين ، ثم عزله نائبه قوصون ، وغدر به ؛ وقتله .

وتعاقب على العرش - بعد المنصور - سبعة من أبناء الناصر على مدى إحدى وعشرين سنة ، كان آخرهم السلطان حسن [٢] الذى حكم نحوا من عشر سنوات ، وثب عليه مملوكه يَلْبُغَا ، وقتله ، وبعد مقتله ، بدأ أمراء المماليك فى وضع أحفاده على العرش ، تسلطن منهم أربعة ، وعاصر الصفدى منهم اثنين ، وكانا صبيين ، ترتكب الكبائر باسمهما ، وليس لهما من الأمر شيء ، وفى عصرهما ظهر الطاعون فى مصر والشام ، وكان الصفدى واحدا من ضحاياه .

عاش الصفدى فى هذه الفترة المضطربة ، من تاريخ مصر والشام ، فما كاد المماليك يخلِّصون البلاد من المغول ، ويطهِّرونها من الصليبيين حتّى تفرّغ بعضهم لبعض ، فهم قوم صناعتهم القتل فإنْ لم يجدوا عدُوًّا ظاهرًا يقاتلونه قتّلوا أنفسهم سعيا وراء السلطة فمن المعروف أنَّ المماليك لم يأخذوا بنظام الوراثة فى تولّى العرش ولم تكن تولية الابن بعد أبيه - فى أغلب الأحيان - إلاّ حَلاً مؤقّتًا حتى ينجلى الموقف ، ويتمكّن القوى من الضعيف ، فمن استطاع منهم أنْ يتغلب على منافسه بخيله ورجله فَرَضَ سلطانه على الجميع ، وغالبا ما كان قاتل السلطان هو أحقُّ الأمراء فى اعتلاء العرش ؛ مما شجّع الأمراء على المغامرة ، والتآمر ، والتنافس فى امتلاك أسباب القوّة ، وذلك بشراء المماليك ، وتدريبهم .

---

(١) سيف الدين ، أبو بكر بن محمد بن قلاوون ، الملك المنصور (٧٢٠ - ٧٤٢ هـ) انظر فى ترجمته : دول الإسلام ٢ / ٢٤٨ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٢٥٠ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٦ ، وعصر الانحدار ٩٦ ، ومصر والشام ٢٠٧ ، ٢١٣ ، والعصر المماليكى ١٢٧ ، والأعلام ٢ / ٦٩ .

(٢) أبو المعالى ، حسن بن محمد ، الملك الناصر (٧٣٦ - ٧٦٢ هـ) كان شجاعا مهيبا ، ذا حزم ، وعزم . انظر : أعيان العصر ٢ / ٢٤٧ ، السلوك ، للمقريزى ٢ / ٣ / ٧٤٥ ، وحسن المحاضرة ٢ / ١١٨ ، والأعلام ٢ / ٢١٦ .

الحياة الاجتماعية فى عصر الصفدى

لعلّ الوصف الذى يقارب الصدق فى وصف هذا العصر هو « **مجاوزة الحدّ** » فى كل أمر من الأمور ؛ فلا نكاد نجد فى التاريخ عصرا لايعرف القصد أو الاعتدال فى أىّ شأن من شئون الحياة كهذا العصر ، فقد تجاوز الحد فى الفوارق بين الطبقات ، وفى البناء والعمارة ، وفى الزهد والمجون ، وفى تطبيق الشريعة والقوانين ، وفى نوازل الأيام وكوارث الطبيعة .

وسأتحدث عن طبقات المجتمع من خلال مجالات خاصة - كالملكية الزراعية ، والثروة ، ومستوى المعيشة - مما هو أبين فى إبراز الفروق بين الطبقات .

فى الملكيّة الزراعيّة كانت الأرض كلّها ملكا للسلطان وحده ، يأخذ منها ما يستحسنه ، ويوزّع الباقى على الأمراء ، والأجناد كلٌّ بحسب رتبته ؛ فللسلطان الربع ، ولنائبه الثمن ، والباقى لأعوان السلطان ومساعديه [١] ، ولم يُسْمَح للمواطنين بامتلاك الأرض إلاّ بعد الوباء الأسود فى سنة ٧٤٩ هـ الذى أهلك جُلّ الفلاحين ، ولم تجد الأرض من يزرعها ، وكان الأمير يمتلك الأرض ، ومَنْ عليها من فلاحين ، وما عليها من حيوان ، وآلات ، ومساكن [٢] ، وإذا مات الأمير ، أو قُتِل ، أو صُودر رجعت ملكيّة الأرض للسلطان .

وفى مجال الثروة تبرز ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : طبقة المماليك ، والحديث عن ثرواتهم شبيه بالأساطير ، وأقاصيص الخرافة [٣] ، فقد زادت محاصيل الأراضى الزراعية ، وازدهرت الصناعة ، واستأثر المماليك بالقسم الأكبر من التجارة العالميّة بين الشرق والغرب [٤] ، وفرضت الضرائب الكثيرة على التُّجّار وأرباب المهن والصنائع والسقّائين ، كما

---

(١) انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ٤٧٨ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ٨١ .

(٢) انظر : المماليك ١٥٩ - ٢٠٥ .

(٣) انظر الحديث عن ثروة شيخو فى البداية والنهاية ١٤ / ٢٥٨ ، و تُنْكُز فى البداية والنهاية ١٠ / ٤٢٠ ، وثروة الأمير سَلاّر فى النجوم الزاهرة ٩ / ١٧ .

(٤) انظر : العصر المماليكى ٢٨٥ - ٣٠٤ .

فُرِضَتْ الضرائب فى مناسبات خاصّة كالأفراح ، وعمل شعار المُلْك ، وأُبَّهَة السلطان [١] .

ولم تكن مصادر هذه الثروة مشروعة ، فى كل الأحوال ؛ فقد يلجأ بعض الأمراء إلى السرقة ، والاغتصاب [٢] ، واستغلال المنصب [٣] ، ويجب ألاّ ننسى أنَّ احتفاظ الأمراء بكل هذه الكنوز تحت أيديهم ، وفى قصورهم شكّل خطرًا كبيرًا على موازين الدولة الاقتصاديّة ؛ فتتورّط فى عجز مالى ، يدفعها إلى أنْ تتخذ تدابير قاسية لتوفير حاجة الدولة من المصاريف [٤] ، وقد تضطرّ إلى غش العملة ؛ فتخلط الدينار بالفضّة [٥] .

وقد أفاض التاج السبكى [٦] فى تصوير ما عرف عن أمراء المماليك من الإسراف ، وحب الذَّهب ، واعتبره من قبائحهم ، فهم يُذَهِّبُون الأطرزة العريضة [٧] ، والمناطق ، وغيرها من أنواع الزينة ، ويزخرفون سقوف قصورهم وحيطانها بالذهب ، « وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب ، فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة ، لا يحصيها إلاّ الله تعالى ؛ فإنَّه لا بد فى كل منطقة ، أو طراز ، ونحوه من ذهاب شىء - وإنْ قلّ جدًّا - تأكله النار ، وهو فى الأبنية أكثر ، فإذا ضممت ذلك

---

(١) النجوم الزاهرة ٩ / ٤٤ .
والأُبَّهَة - بالضم وتشديد الباء - : العظمة ، والبهاء .
انظر : اللسان « أبه » ١٣ / ٤٦٦ ، والألفاظ الفارسيّة ٧

(٢) انظر : مطالعات فى الشعر المملوكى ٤٥ .

(٣) بدائع الزهور ١ / ١ / ٥٤٦ .

(٤) انظر : السلوك ٢ / ٣ / ٩٢٠ .

(٥) انظر : الوافى بالوفيات ٨ / ٩٠ .

(٦) أبو نصر ، عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، تاج الدين (٧٢٧ / ٧٧١ هـ) من قضاة الشافعية ، مؤرخ ، أديب ، أصولى ، فقيه ، مولده بمصر ، ووفاته بدمشق ، انظر : ألحان السواجع ١/ ٥٠٥، والوافى بالوفيات ١٩ / ٣١٥ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٩١ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٣١٨ ، والمنهل الصافى ٧ / ٣٨٥ ، والدليل الشافى ١ / ٤٣٣ ، والأعلام ٤ /١٨٤ ، ومعجم المؤلفين ٦/٢٢٥ .

(٧) الطراز ، جمعه طُرُزٌ ، وطرازات ، وأطرزة : الثوب الموشّى ، وعلم يحتوى على شعار السلطان أو الأمير ، وكان لتلك الكتابة والنقوش دار خاصّة ، تسمّى « دار الطراز » . انظر : المغرّب ٢٢٣ ، والألفاظ الفارسيّة المعربة ١١٢ ، رسوم دار الخلافة ٢٦ ، المجموع اللفيف ٢٣ ، Dozy : Supp. dict. Arab. V.II P. 35.

القليل إلى قليل آخر ، على اختلاف البقاع ، والأزمنة لم يحص ما ضاع من القناطير المقنطرة من الذهب إلاَّ الله تعالى ، ثمّ القدر الذى يسلم ، ولا يضيع ، يصير محبوسًا عندهم أطرزة ، ومناطق ، وسلاسل وكنابيش [١] ، وسروجا ، وغير ذلك من المحرّمات المختلفة الأنواع ، ولو كان مضروبا سكّة ، يتداوله المسلمون ؛ لانتفعوا به ورَخُصَتْ البضائع ، وكَثُرَتْ الأموال » [٢] .

الطبقة الثانية : تضم موظفى الدولة ، والتجار ، وأصحاب المهن والعلماء ، وكانت الأموال التى يحصلون عليها أجْرًا على أعمالهم فى وظائفهم ، أو كَسْبًا من تجارتهم وصنائعهم كانت توفّر لهم - عادة - حياة طيّبة ، وعيشة رغْدة [٣] ، وبالرغم من ذلك ؛ فإنّنا نجد بعض الموظفين تغريهم الدنيا ، ويدفعهم الطمع فى الكسب الحرام إلى الانحراف عن سواء السبيل ، فمنهم من يزوّر فى الأوراق الرسمية [٤] ، أو يرتشى [٥] ، ومنهم من كان يغشّ النقود ؛ فيخلطها بالرصاص ، أو النحاس [٦] .

ومتى انكشف أمر هؤلاء المنحرفين كانت الدولة تنزل بهم أشدّ أنواع العقاب ، وتصادر أموالهم ، وتلزمهم بردّ المبالغ التى اختلسوها ، وإذا عجزوا عن تدبير المطلوب منهم فقد يضطرون إلى بيع ممتلكاتهم ، وبناتهم ؛ لسداد تلك الديون [٧] .

---

(١) الكنبوش ، والجمع كنابش ، وكنابيش ، وتطلق على :

أ - البرذعة تكون تحت السرج ، وكان يكتب عليها ألقاب السلطان ، أو الأمير بالزركش ، والذهب ، والحرير .

ب - خمار أو « برقع » تغطّى به النساء وجوهها ؛ لحمايتها من برودة الهواء .

انظر : صبح الأعشى ٢ / ١٣٣ - ١٣٥ ، و٤ / ١٢ - ٥٤ ، وانظر :

Dozy : Supp. dict. Arab. V. II P. 499.

(٢) معيد النعمَ ومبيد النقم ، للسبكى ٥٠ .

(٣) انظر : صبح الأعشى ٤ / ٥١ .

(٤) انظر : أعيان العصر ٣ / ٧٢٠ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٦٧ .

(٥) انظر : السلوك ٣ / ١ / ٨ .

(٦) نفسه ٢ / ٣ / ٧٧١ .

(٧) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦٩ .

الطبقة الثالثة : وتضم عامة الناس : من الفلاحين ، والمساكين ، والعاطلين ، والعاجزين عن الكسب يجمعهم كلهم البؤس والشقاء فقد كان يعيش فى القاهرة وحدها حوالى مائة ألف بلا مأوى إلاَّ الطرقات ، وبلا ملبس إلاَّ الأسمال البالية [١] .

كان نصيب الفلاحين الإهمال ، والاحتقار ، وصار لفظ « فلاَّح » رمزًا على التخلف ، والجمود ، والسَّب ، يستعمله الناس فى الهجاء ، وتحمّل الفلاّحون من الظلم ، والمغارم ما لا سبيل إلى وصفه ؛ فالحكّام يأخذون منهم الضرائب مضاعفة ، ولم يسلموا من أذى العربان الذين كانوا يغيرون على القرى ، فينهبون المحاصيل ، والمواشى ، ويفرضون عليهم « إتاوات » باهظة [٢] ، ويكون الخطب أشد ، والنازلة أنكى إذا وقع الخُلْف بين الأمراء ، وشهر أحدهم السلاح فى وجه منافسه ؛ لأنَّ الجنود كانوا يعيثون فسادًا فى القرى ، ويأخذون الأقوات ، ويفجرون بالنساء ، وقد يضطر الفلاحون إلى ترك بيوتهم ، ويهيمون على وجوههم فى الطرقات [٣] ، ولو اقتصر الأمر على أوقات النِّزاع لهان الأمر ، ولكنهم كانوا يخرجون إلى الصيد كثيرا ، يتريَّضون ، ويرتكبون من الجرائم ما يندى له الجبين [٤] .

ومن المعتاد أَنْ تتولّد الجريمة فى أجواء الجور والعسف ، فيكثر المنحرفون ، والخارجون على القانون الظالم ، وربّما تكوّنت من هؤلاء الثائرين على الأوضاع جماعات تستخدم وسائل مبتكرة فى التهديد ، وابتزاز الأموال ، وتحتال بطرق ماكرة فى النجاة من العقاب [٥] ، ومنهم من يحترف النصب والاحتيال [٦] ، ومنهم من يحترف شهادة الزور [٧] ، وإذا قبضت الشرطة على المشتبه فيهم فإنَّهم يعذِّبونهم

---

(١) انظر : العصر المماليكى ٣٢٤ .
الأسمال جمع سَمَل : وهو الثوب الخَلَق ، انظر : أساس البلاغة ٢٢٠ .
(٢) الإتاوة : الخراج ، والرِّشْوة . انظر : القاموس المحيط « الأتو » ٤ / ٢٩٧ .
(٣) انظر : الوافى بالوفيات ٨ / ٨٩ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٤٤ .
(٤) معيد النعم ٥٢ .
(٥) السلوك ٢ / ٣ / ٦٤٩ .
(٦) نفسه ٢ / ٣ / ٦٤٩ .
(٧) نفسه ٢ / ٣ / ٩١٥ .

عذابا شديدا ، ويضربونهم بالمقارع [١] ضربًا مبرِّحًا ؛ ليعترفوا ، وقد يموت منهم أفراد من التعذيب [٢] .

ومن الجدير بالذكر أنْ نعلم ما يحدثه سوء توزيع الثروة من تفاوت كبير بين الطبقات ، فى مستوى المعيشة ؛ فنجد المماليك فى حياتهم الخاصة صورة للبذخ ، والإسراف فيما يأكلون ، ويلبسون ، وكانت قصورهم الفاخرة تزيّن سقوفها بالذهب ، وتنقش بالجواهر ، وتغطى أرضها بالرخام الثمين ، وتؤثث بالفرش الغالية ، وكان هذا الترف ، والتفاخر بالثراء طابع حياتهم فى : المجالات الدينية ، والدنيوية ، وفى أمور الدولة أيضا [٣] .

ونتيجةً لهذا الإسراف كان المماليك يعاملون الممولين بكل قسوة ، فكثرت الضرائب ، وأصبحت مصادرة الأموال تلاحق التجار ، والحِرَفِيِّين ، والفلاحين .

ولم تكن الضرائب والمصادرة وحدهما هما سبب الشقاء الذى أرهق عامة الناس ، فى عصر المماليك ؛ بل يضاف إلى ذلك المجاعات المتعدّدة [٤] ، وغلاء الأسعار ، ويمكن الإشارة إلى أسباب هذه المجاعات فيما يأتى :

* منها الجفاف ، ونقص مياه النيل فى مصر ، أو غزارة الأمطار وغرق الأرض بالفيضانات والسيول فى الشام [٥] .

* ومنها الجراد ، والآفات الزراعية الأخرى [٦] ، من ذلك ما حدث فى سنة ٧٢٨ هـ حين ظهرت فى مزارع أرض مصر آفة من الدودة ، بعد حرٍّ شديد ، أتت على أكثر الزروع ، وفى سنة ٧٤٣ هـ ظهر جراد عظيم ، سدَّ الأفق ، وأكل جميع الأشجار ، حتى أخشابها ، وأفسد الثمار كلّها .

---

(١) المقارع جمع مِقْرَعة : وهى خشبة تضرب بها البغال والحمير .
انظر : لسان العرب « قرع » ٨ /٢٦٤

(٢) الوافى بالوفيات ١٠ / ١٩١ .

(٣) راجع كتابى : الصفدى وآثاره فى الأدب والنقد ٢٦ - ٤٥

(٤) راجع : السلوك ٢ / ٣ / ٦٢٢ ، و ٦٧٣ ، و٧٥٣ ، والتوفيقات الإلهامية ١ / ٧٢٧ - ٨٠٠ .

(٥) دول الإسلام ٢ / ٢٣٣ .

(٦) السلوك ٢ / ١ / ٣٠٠ .

* ومنها العواصف والرياح الشديدة التى كانت تحجب الرُّؤْية ؛ حتى لا يرى الإنسان رفيقه ، وتقتلع الأشجار ، وتهدّم الدور ، وتغرق المراكب [١] .

* ومنها الحرائق الكثيرة التى كان يؤجِّج نارها بعض النصارى فى أموال المسلمين ، من ذلك حريق القاهرة الكبير ، فى سنة ٧٢٥ هـ [٢] .

* ومنها الأوبئة وانتشار الأمراض ، وبخاصة الطاعون المعروف بالوباء الأسود [٣] الذى بدأ عام ٧٤٩ هـ واستمر يطوف حول العالم خمس عشرة سنة ، لم ينج منه طير فى السماء ، ولا حوت فى أعماق البحار ، ولا حيوان على وجه الأرض ، وهلك فيه أكثر الأيدى المنتجة فى مصر والشام ، وقد حوّل كتاب الديوان سنة الطاعون إلى سنة ٧٥١ هـ ، وألغوا سنة ٧٥٠ هـ ، وكان يقال : مات فى تلك السّنة كُلُّ شىء حتّى السنة نفسها [٤] .

* ومنها الزلازل التى هدَّمت البيوت والمساكن ، وحطّمت القلاع والحصون ، وأزهقت النفوس والأبدان [٥] .

* ومن العوامل التى تركت آثارها السيّئة فى الحياة الاقتصاديَّة العامة الفتن الداخليّة والثورات الشعبيّة من ذلك :

ثورة العامة ، فى الإسكندرية بسبب مشاجرة بين مسلم ، وذِمِّى ؛ فأحرق الثائرون باب الوالى ، فغضب السلطان وأمر بإعمال السيف فى رقاب الناس ، وأخذ من التجار أموالا عظيمة ، وقتل كثيرا من الفقهاء ، والمدرسين ، والصالحين ؛ لأنَّهم خرجوا وقت الفتنة ، يستغيثون ؛ وسبب غضب السلطان ظنّ أنَّ الباب الذى أُحرق هو باب السجن الذى يُحْبَس فيه أمراء المماليك [٦] .

ثورات الأعراب ، وهى أخطر الفتن الداخليّة ، فقد كان الأعراب « ملوك البر ،

---

(١) السلوك ٢/١/٣٠٠

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٣٨٨ ، وراجع النجوم الزاهرة ٩ / ٦٥ .

(٣) السلوك ٢ / ٣ / ٧٨١ ، والقاموس الإسلامى ٤ / ٤٣٥ .

(٤) صبح الأعشى ١٣ / ٦٢ .

(٥) الوافى بالوفيات ٤ / ٣٦٤ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٦٥٢ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٠٢ .

(٦) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٤٠٢ .

وأمراء الشام ، والعراق ، والحجاز » [1] واشتدّ فسادهم فى البلاد ، وكثر قطعهم للطرقات ، واستخفافهم بالولاة ولا تمتدّ يد السلطان إلى من أجاره الأعراب [2] .

هذه الحياة القلقة المضطربة بما فيها من تناقضات ومفارقات وبما يشيع فيها من مآس وآلام قد تركت آثارًا واضحة فى سلوك الناس وأخلاقهم وعاداتهم :

فمنهم من مال إلى العاجلة ؛ فجعل إلهه هواه ، يغتنم اللذّات ، ويتّبع الشهوات .

ومنهم من ملأ اليأس قلبه ؛ فزهد فى الدنيا وزخرفها ، وانصرف إلى الآخرة ، يعمل لها هربا من الواقع .

وقليل منهم من استطاع أنْ يحيا حياة متّزنة بين التصوف والمجون ؛ فلا يفرّط فى دينه ، ولا ينعزل عن مجتمعه .

ويحدِّثنا المؤرّخون عن المرأة – فى مجتمع المماليك والطبقة العليا فى الدولة – بأنّها كانت تتمتّع بقسط وفير من الحرّية والكرامة ، وتؤدِّى دورا بارزا فى الحياة السياسيّة ؛ فترفع ، وتخفض ، بل ذهب بعضهم إلى أنَّ أوّل من ملك مصر من سلاطين المماليك كانت امرأة ، يعنون بها شجر الدّر [3] .

وفى البيئات المتوسّطة كانت المرأة تخرج إلى الأسواق ، وتتردَّد على الحمَّامات ، وتطلب العلم فى المساجد ، وتشارك فى الحياة العامة ، وتتمتع بقدر كاف من الاحترام [4] ، ولعلَّ العصر المملوكى أكثر عصور التاريخ الإسلامى اشتمالا على عدد كبير من المحدّثات ، والعالمات فى الفقه اللاتى شاركن مشاركة فاعلة فى نشر العلم الدينى ، ولا نكاد نجد عالما من العلماء إلاّ وله إجازات من بعض العالمات ، أوقراءة على بعضهن ، ويذكر الذهبى أنَّ من تلقى العلم عليهن ، ومن أجزن له ، أو كنّ فى عصره ممن تشدّ الرحال إليهن ثلاث ومائة من النساء [5] .

---

(١) مسالك الأبصار « قبائل العرب » ، لابن فضل الله العمرى ١١٢ .

(٢) السلوك ١ / ٣ / ٩٢٠ ، و٢ / ٣ / ٦٥٦ .

(٣) عصمة الدين ، جارية السلطان الملك الصالح (ت ٦٥٥ هـ) كانت بارعة الجمال ، ذات رأى ودهاء وعقل ، لمّا ولدت للسلطان ابنه خليلا أعتقها ، وتزوجها ، تولّت ملك مصر بعد وفاة زوجها فى سنة ٦٤٧ هـ . انظر : ذيل مرآة الزمان ١ / ٦١ ، وكنز الدرر ٨ / ١٢ ، والوافى بالوفيات ١٢٠/١٦ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٣٩ ، وأعلام النساء ٢ / ٢٩٠ ، والأعلام ٣ / ١٥٨ .

(٤) انظر : مصر والشام ٢٧٠ .

(٥) راجع فهرس الأعلام فى معجم شيوخ الذهبى .

أمّا وضع المرأة فى البيئات الشعبية فإنّ كتب التاريخ تضنّ علينا بأخبارها ، وربّما كانت إلى الظلم والاضطهاد أقرب قياسا على وضع الرجل فى مثل هذا المجتمع الطبقى [1] ، وإنْ كانت الأدلة قائمة تثبت مشاركتها زوجها فى عمله ، وتحمّلها مشاق الكسب والسعى بجانبه ، فى سبيل العيش ، والحفاظ على الحياة .

(١) مطالعات فى العصر المملوكى ٤٩ .

obeikandl.com

يلاحظ دارسو الآداب ، والمتتبعون لتاريخ العلوم أنَّ الحركة الثقافية لا تسير فى خط مواز دائما للحركة السياسيّة ؛ فقد يكون الرقُّى السياسى مصدر الرقُىّ الأدبى ، وقد يكون الانحطاط السياسى مصدر الرقُىّ الأدبى أيضا ، والقرن الرابع الهجرى دليل واضح على أنَّ الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسيّة فى كثير من الأحيان [1] ؛ فالدولة العبّاسيّة - فى عهودها المتأخِّرة - ضعفت سلطتها المركزيّة ، وتمزّقت وحدتها السياسيّة ، وأصبح تاريخها هو تاريخ الإمارات التى انشقّت عنها ، وإذا كانت هذه الدويلات المنشقّة قد أتت على بنيان دولة العرب من القواعد فقد ظلّت الحركة الثقافيّة - فى رُقِيِّها ونهوضها - امتدادًا موصولا بالحركة الثقافية الرائعة فى العصر العبّاسى الأول ؛ وذلك بفضل تنافس الملوك والأمراء فى نشر العلم ، ورعاية العلماء ، ومشاركة بعضهم فى فنون من القول والفكر .

وفى عهد المماليك استمرّت الحركة الثقافيّة قويّة ونشطة ، بالرّغم مما أصابها من تقليد فى الفكر ، وتصنُّع فى الأسلوب ؛ فالأدب مرآة حياة المجتمع ، والمعبر عن قضاياه وشواغله ، ولا بُدَّ من أنْ يعتريه من التغيّر بقدر ما تصدّع من بنيان الأمّة ، فى وقت غابت فيه السيادة العربية ، والقيادة الرشيدة ، وصار الأمر فى أيد أعجميّة تعمل - غالبا - لصالحها من دون الناس .

والاحتياط محتوم فى ترديد ما اعتاد أكثر مؤرخى الأدب والباحثين من وصف العصور التى تلت نكبة بغداد ، على أيدى المغول ، فى سنة ٦٥٦ هـ بأنَّها عصور الضعف الثقافى ، والانحطاط الأدبى ، والانهيار الفكرى ؛ فإنَّ أمراء المماليك بذلوا جهودا طيِّبة فى سبيل رقى العلوم ، والنهوض بها ، ولم يخل عصر واحد منهم من تشييد مدرسة ، أو بناء جامع ، فيه مدرسة وخزانة كتب ، أو تأسيس كُتَّابٍ للأطفال ، أو دار لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم ، أو دار يدرس فيها طلاب العلم الحديث

(١) من تاريخ الأدب العربى ، لطه حسين ١ / ٣٩ .

الشريف ، وأوقفوا قرى وضياعا ينفق من وارداتها على مراكز الثقافة ، ومن أمثلة ذلك :

البِيمَارِسْتَان العظيم [١] الذى بناه الملك المنصور ، وأعدَّ فيه المرافق ، والأدوية ، ورتّب فيه الأطباء للعلاج ، والعلماء للتدريس ، وأوقف عليه أوقافا عظيمة [٢] .

أمر حسام الدين لاجين بتجديد جامع أحمد بن طولون ، وأوقف عليه عدّة قرى ، وقرّر فيه دروس الفقه ، والحديث ، والطب ، وغير ذلك [٣] .

كان فى جامع عمرو بن العاص بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم ، لا تكاد تبرح منه ، ولم يكن الجامع الأزهر - وهو أشهر معاهد العلم الإسلاميّة على الإطلاق - مقصورا على أهل مصر وحدها ، بل كان المسلمون يقصدونه ، من كافّة أنحاء العالم الإسلامى ، وبخاصّة من بلاد المغرب ، والهند ، وأواسط إفريقية [٤] .

وأمَّا مدارس القاهرة فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها [٥] ، وفى مدن مصر والشام ، وقراهما بلغت نحوًا من سبعين مدرسة ومعهدا ، ومثل هذا العدد فى الأصقاع ، والولايات التابعة للمماليك [٦] الذين استحدثوا مراكز جديدة للتعليم ، لم تكن معروفة من قبل ، فإلى جانب المساجد ، والمدارس ، والزوايا ، والكتاتيب ، والبيمارستانات اتّخذ المماليك من المقابر مراكز لطلب العلم ، سمَّاها التُّجَيْبِى [٧] « الروضات » ، ووصف منها روضة الملك الصالح ، وروضة الملك المنصور [٨] .

---

(١) البيمارستان ، أو المارستان : دار المرضى . انظر : ترتيب القاموس المحيط ٤ / ٢٢٩ ، والألفاظ الفارسية المعربة ٣٣ ، واللفيف المجموع ٥٢ ، وانظر Dozy : Supp. dict. Arab. V.II P 572.

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ، للتجيبى ٤ ، ورحلة ابن بطوطة ٣٧ .

(٣) مستفاد الرحلة ٦ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٠٧ .

(٤) عصر الانحدار ١٧٤ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ٣٧ .

(٦) عصر الانحدار ١٧٤ .

(٧) القاسم بن يوسف بن محمد ، علم الدين ، التُّجَيْبِى ، السَّبتى (نحو ٦٧٠ - نحو ٧٣٠ هـ) محدّث ، عالم ، رحّالة ، انتقى له الذهبى مائة حديث عن مائة شيخ . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤/١٧٣ ، والدرر الكامنة ٣ / ٢٤٠ ، وفهرس الفهارس والأثبات ، للكتانى ١ / ٢٦٤ .

(٨) انظر : مستفاد الرحلة والاغتراب ٥ .

يضاف إلى كل تلك المراكز الندوات العلميّة ، والمجالس الأدبيّة التى دأب العلماء على عقدها فى بيوتهم ، وبساتينهم ، فتجرى فيها المناظرات ، والمحاورات ، وتلقى فيها الدروس على الدارسين ، ويؤدى فيها الطلبة امتحانات الكفاءة [١] .

وكانت المكتبات العامة ، وخزائن الكتب تَمُدُّ مراكز الثقافة بالمراجع ، وبخاصّة بعد تقدُّم صناعة الورق ، وظهور حرفة نسخ الكتب ، وبيعها .

ومن سلاطين المماليك من تشبّه بالخلفاء العبّاسيّين ؛ فحرص على عقد المجالس العلميّة ، والدينيّة ، بالقلعة مرّة ، أو مرّتين فى كل أسبوع ، حيث يُطْرح للبحث مختلف المسائل ، والمشكلات العلميّة ، والدينيّة ، ويتناقش فيها الحاضرون من كبار الفقهاء والعلماء ؛ ولذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك ، وأبنائهم ، والحكّام التابعين لهم أنّهم اشتغلوا بالعلم ، وتصدّى بعضهم للإقراء ، والتدريس [٢] .

وليس من أهداف هذه الدراسة تقديم ثبت بحصر علماء المماليك وأدبائهم ، فهم كثير ، وإنّما الهدف إظهار ما لهم من عناية بالعلم والأدب ؛ لذلك لم يكن من الغريب أنْ يشجّعوا العلم وأهله ، وأنْ يبنوا المدارس المنيفة الهائلة المزخرفة بالذهب الإبريز المفروشة بالرخام المجزَّع البديع الصنعة [٣] .

وجرت العادة – عند الفراغ من إنشاء مدرسة – أنْ يُحْتَفَل بافتتاحها احتفالا كبيرًا ، يحضره السلطان والأمراء والأعيان فيجتمعون حول مائدة فاخرة ، ويخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة من البنّائين والمهندسين والمعلمين ، ويعيّن لها موظفيها من المدرّسين والفقهاء والمؤَذِّنين والقرّاء والفرّاشين .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القَدْر ، يخلع السلطان على صاحبها ، ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يتضمّن : توجيهات تربويّة ، ونصائح تعليميّة ، وحَثًّا على الاشتغال بالعلم ، كما يُعَيِّن لكل مدرسة معيدًا ، أو أكثر ؛ ليساعد الطلبة على فهم درس الأستاذ ، واستيعابها ، فإذا أتَمَّ الطالب دراسته أجاز له شيخه ،

---

(١) مستفاد الرحلة والاغتراب : ٢٠ .

(٢) انظر : العصر المماليكى ٣٤٢ .

(٣) انظر : مستفاد الرحلة والاغتراب ٣ .

وأصبح أهلا للفُتْيا والتدريس [1] وكانت نفقات التعليم كلّها من الأوقاف التى توقف على المدارس ، ومراكز الثقافة ، ويذكر ابن كثير الأجور الرواتب التى كان الأمير سيف الدين مُنْكُلِى بُغَا - نائب السلطان - يدفعها من أوقاف الجامع ؛ فجعل من الطلبة - من جميع المذاهب - خمسة عشر طالبا ، لكل طالب فى الشهر عشرة دراهم ، وللمعيد عشرون ، ولكاتب الغيبة عشرون [2] ، وللمدرس ثمانون [3] .

وكانت الدراسة فى ذلك الوقت على مستويين متمايزين : ما يدرسه المماليك وينشّئون عليه ، وما يدرسه عامة الناس .

كان تعليم المماليك فى ساحة الإيوان بالقلعة ، حيث يحفظون القرآن الكريم ، ويتعلّمون الكتابة ، والخط ، وآداب الشريعة ، وشيئا من الفقه ، وفى سنّ البلوغ يتعلّمون ركوب الخيل ، واستعمال السلاح ، ويتدرّبون على القتال ، وإصابة الأهداف ، وأنواع الحروب ، ويخضعون لرقابة مشدّدة فى حياتهم وفى مأكلهم ، وملبسهم ، فإذا ما أتمّ المملوك تعليمه ، وتدريبه أعتقه أستاذه ، وينقل إلى الخدمة ، ويرقّى فى أطوارها رتبة ، بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء [4] .

وكان تعليم عامّة الناس فى مراكز العلم المختلفة التى تقدّم للدارسين ثلاثة أنواع من العلوم :

الأول : العلوم النقلية ، وهى العلوم الشرعيّة ، وعلوم الكلام .

والثانى : العلوم اللسانيّة ، وهى علوم اللغة العربية .

والثالث : العلوم العقلية كالطب ، والفلك ، والرياضيات ، وغيرها ؛ فقد كانت المدارس تختلف بحسب موقعها ، والغاية من تأسيسها [5] .

---

(١) العصر المماليكى ٣٤٣ ، وأدب الدول المتتابعة ١٣٣ .

(٢) كاتب الغيبة ، كان يحضر بكرة وعصرا ، ويكتب اسم من تغيّب ، وينقص من راتبه ما يخص أيام الغياب . انظر : أعيان العصر ٥ / ٦٢٨ .

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ .

(٤) انظر : الفصل الثالث « تربية الفارس » من كتاب المماليك ٨٣ - ١٢٧ .

(٥) انظر : مطالعات فى الشعر المملوكى ٦٤ .

ويؤكد ابن خلدون أنَّ العلم والتعليم إنَّما هما بالقاهرة [١] ، ويعلل لرأيه بقوله [٢] : « واختُصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أُمُّ العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » .

وفى الحقيقة أصبحت القاهرة ، فى زمن المماليك « مجمع الوارد والصادر ، ومحطّ رحل الضعيف والقادر» [٣] وبخاصة منذ أنْ أصبحت مقرّ الخلافة العبّاسيّة ، وبالرَّغم من أنَّ الخلافة العبّاسيّة فى القاهرة لم تكن أكثر من مجرّد رمز دينى ، وليس للخليفة من سلطة إلاَّ مباركة السلطان المملوكى ، وتنصيبه ، فقد تنبّه كثير من الباحثين إلى أهميّة وجود الخلافة الإسلاميّة ، وضرورتها لشرعيّة الحكم [٤] ؛ فمنها يستمدُّ الأمراء سلطتهم ، وتحت رايتها تستنفر الجنود للجهاد ، وبأمرها تجمع الأموال ، وتفرض الضرائب ؛ لتحصين البلاد والدفاع عنها .

وقد أصبحت القاهرة محلّ الأمراء والأجناد ، وأرباب الصنائع ، وأهل الأموال والبضائع والذخائر ، واستقرّ بها الفضلاء والنبلاء ، وهاجر إليها علماء المشرق والمغرب ، فوجدوها موطنًا كريما ، وحرمًا آمنًا مضيافا ، ورحّب بهم أبناء عمومتهم ، ولاقوا فى إقامتهم – من عطف المماليك ، ورعايتهم – ما حبّب إليهم البقاء فيها ؛ فانبسطت نفوسهم ، واطمأنّت قلوبهم ، وطاب لهم المقام بها ، فأخذوا يكتبون ، ويصنّفون ، وينثرون ، وينظمون ، ويعلّمون [٥] .

تعرّضت الثقافة العربية فى العصور الوسطى إلى نكبتين داهمتين :

أولاهما : فى المشرق ، بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول ، فى سنة ٦٥٦ هـ .

وثانيتهما : فى المغرب ، بعد أنْ أخذ الإسبان يُخْرِجُون العرب من ديارهم ، وأرضهم ، ويفتنونهم فى دينهم ، حتى تمَّ لهم الاستيلاء على غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ، وحصونهم ، فى الأندلس ، فى سنة ٨٩٧ هـ ، وأصبحت الأندلس أرضا

---

(١) المقدمة ٢ / ٥٢٧ .

(٢) نفسه ٢ / ٧٠٩ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ٣٦ .

(٤) مستفاد الرحلة والاغتراب ٣ ، والعصر المماليكى ٣٥٤ .

(٥) الحياة الأدبيّة فى مصر « العصر المملوكى والعثمانى » ١٤ .

بلا إسلام ، وأصاب كنوزها العلمية والأدبية ما أصاب كنوز بغداد ، من تلف وضياع ، وما تعرضت له من حرق وتدمير ، وتجمّع العلماء فى مصر والشام ، وجدُّوا فى جمع التراث وتدوينه ، وبذلوا جهدا مشكورا ، فى هذه السبيل ، وتركوا للإسلام وللعروبة من المؤلفات ، والموسوعات ، والبحوث ما يبوِّئهم أسمى مكان ، ويشهد لهم بالفضل والفخار ، وليس من المبالغة فى شىء القول بأنَّ المؤلفات التى كتبت فى العصر المملوكى بلغت عشرات الألوف ، فى مختلف الفنون ، والعلوم ، مازال العرب إلى اليوم عاجزين - أفرادا ، وجماعات ، وحكومات - عن تحقيقها ، ونشرها ، وتيسير سُبل الانتفاع بها ، والدليل على ذلك أنّ أغلب العلماء فى تلك الفترة كانوا من المكثرين فى التأليف ، وأنّ أعدادا كبيرة منهم ألَّف العالم الواحد منهم المئات من الكتب ، وبعض تلك الكتب تتكون من عشرات المجلدات التى تمتلئ بها خزائن الكتب فى العالم .

وكان لهذه النهضة العلميّة والأدبية أثر واضح فى تقدّم الحضارة العربيّة ، فى ذلك الوقت .

وفى كتب التاريخ ، والأدب ، والرحلات صور من مظاهر الحضارة ، تثير الإعجاب ، فيذكر التُّجَيْبى أنَّه كان فى جامع ابن طولون فى القاهرة ٢٤ طاقة ، بعدد ساعات النهار ، يعرف بها الوقت [١] ، وفى ترجمة محمد بن بادى بن أبى بكر ، شمس الدين الطِّيبِى كان يصنع فتائل العنبر ، وكان يستعمل نظّارة طبيّة [٢] .

وكان إبراهيم بن أبى الوحش أول من صنع شراب الورد [٣] .

وهم أول من صنع « التوربين المائى » المستخدم فى إدارة الآلات ؛ فقد صنع الأمير جركس الخليلى ، وهو أمير آخور كبير [٤] طاحونا فى مركب ، عند بسطة المقياس ، يديرها الماء ، مثل الرّحا وتستخدم فى طحن القمح ، وجَعْلِه دقيقا ، فيأتى الناس إليها أفواجًا أفواجا لرؤيتها ، ووصفها الشعراء .

---

(١) مستفاد الرحلة والاغتراب ٧ .

(٢) أعيان العصر ٤ / ٣٤٥ .

(٣) نفسه ١ / ١٣٤ .

(٤) أمير آخور : من يشرف على إسطبل السلطان ، ويقوم بأمر ما فيه من الخيل والبغال وغيرها . انظر : صبح الأعشى ٥ / ٤٦٠ .

وكتب بعض المغاربة رقعة فى ورقة بيضاء إنْ قُرِئَت فى ضوء السراج كانت فضيّة ، وإنْ قُرِئت فى الشمس كانت ذهبيّة ، وإنْ قرِئت فى الظل كانت حبرا أسود [١] .

وغير ذلك كثير من وسائل التقدم العلمى .

حياة الصفدى

اسمه ونسبه : هو الإمام الأديب أبو الصفاء ، خليل بن أيبك ابن عبد الله ، الألبكى ، السيفى ، الفارى [٢] الصفدى ، المشهور فى كنيته صلاح الدين [٣] من أصل تركى ، ولد فى صفد ، وإليها نسبته ، وذكر أنّه ولد فى سنة ٧٩٦ هـ [٤] ولكنّ هناك الكثير من الشواهد ترجح أنْ يكون مولده قبل هذا التاريخ ببضع سنوات .

نشأته وطلبه العلم : نشأ الصفدى - على ما ينشأ عليه أبناء المماليك - نشأة عربية خالصة : فحفظ القرآن الكريم ، وقرأ الحديث ، والأصلين ، والفقه ، وتعلّم الكتابة ، والرسم ، ودرس الحكمة ، والهيئة ، والحساب ، والمنطق ، وبرع فى الخط والأدب ، والتاريخ ، ونظم الشعر ، وطاف مع الطلبة فى دمشق ، وحلب ، والقدس ، والقاهرة ؛ فأجاد ، وأتقن النحو ، والبلاغة ، واللغة ، وهى الثقافة الضرورية لكتاب الإنشاء فى عصره .

وأصبح الصفدى رُحْلَة الطالبين ، وتصدّر للإفادة بالجامع الأموى ، وتولّى نظر المدرسة التقوية بدمشق [٥] ، وقصده العلماء والدارسون ، من كل مكان ، وتلمذ له كثير من النابهين ، وسمع منه بعض شيوخه .

---

(١) الوافى بالوفيات ١ / ١٩٧ .

(٢) نسبة إلى الفار ، وهى بلدة من نواحى أرمينية .
انظر : معجم البلدان ٤ / ٢٢٥ .

(٣) جاء لقبه فى إجازة شافع بن على له « غرس الدين » .
انظر : أعيان العصر ٢ / ٥٠٦

(٤) نفسه ١ / ٣٨ .

(٥) أعيان العصر ٤ / ٣٢٤، والمدرسة التقوية هى التى أنشأها الملك المظفر ، تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فى سنة ٥٧٤ هـ .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ١ / ١٦٢ .

أعماله و وظائفه :

أوّل وظائفه كتابة الدّرْج فى صفد ، فى أواخر سنة ٧١٧ هـ ، للأمير حسين بن جُنْدُر بك ، والى صفد ، ولمّا طُلب الأمير إلى مصر توجّه إليها ، ومعه الصفدى ، يكتب له ، والراجح أنَّ الإقامة طابت له فى القاهرة ، ولم يشع فى الانتقال منها إلاّ بعد وفاة الأمير ابن جندر بك فى سنة ٧٢٨ هـ .

لمّا توفى ابن جندر ، طلبه عبد الله ابن تاج الرئاسة [١] فى شوال سنة ٧٢٨ هـ ، ليكتب له [٢] .

أقام الصفدى فى القاهرة حتى مستهل شعبان من سنة ٧٢٩ هـ ، وهو تاريخ إجازة ابن نباتة له [٣] .

وفى آخر سنة ٧٢٩ هـ ، أُسْنِدت إليه وكالة بيت المال وكتابة الدَّرْج فى مدينة « رحبة مالك بن طوق » [٤] ، فوصل إليها فى شهر المحرم من سنة ٧٣٠ هـ [٥] ، ونقل إلى دمشق فى شهر ربيع الأول سنة ٧٣١ هـ ، وذلك فى وظيفة كاتب درج [٦].

---

(١) الصاحب ، الرئيس ، أمين الملك ، عبد الله ابن تاج الرئاسة (ت ٧٤٠ هـ) وزير الديار المصرية والشامية ، كان نصرانيا ، وأسلم . انظر : الوافى بالوفيات ١٧ / ٨٨ ، وأعيان العصر ٢ / ٦٥٨ ، وتذكرة النبيه ٢ / ٣٢٣ ، والدرر الكامنة ٢ / ٢٥١ .

(٢) الوافى بالوفيات ١٧ / ٨٨ ، وأعيان العصر ٢ / ٦٦٢.

(٣) أبو بكر ، محمد بن محمد بن محمد ، الفارقى ، جمال الدين المصرى (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ) شاعر ، أديب . انظر : معجم الشيوخ ٢ / ٢٧٨ ، ودرة الأسلاك ٤٤٤ ، وتذكرة النبيه ٣ / ٣٠٤ ، والمقفى الكبير ٧ / ١٠٣ ، والأعلام ٧ / ٣٨ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٢٧٣ .

(٤) رحبة مالك بن طوق : مدينة بين الرّقة وبغداد ، على شاطئ الفرات ، إليها تنسب الثياب الرحبية ، وتعرف برحبة الشام .

انظر : معجم البلدان ٣ / ٣٤ ، والمشترك وضعا ٢٠٣ ، وتقويم البلدان ٢٨٠

وانظر مقدمة الشريشى لشرح المقامة الرحبية ١ / ٣٧٤ .

ومالك بن طوق بن عتاب ، التغلبى - من بنى ثعلبة ، وكنيته أبو كلثوم - قائد شجاع ، جواد كريم ، مدحه أبوتمّام ، وكان شاعرا فصيحا ، وكان أميرا على الجزيرة . انظر : الأعلام ٥ / ٢٦٢ .

(٥) منشآت الصفدى ٢١ / ب .

(٦) انظر : أعيان العصر ١ / ٦٠ ، ٣٠٨ ، ٣/ ٥٩٩ ، و٤ / ١٨١ ، و ٢٥٧ و٢٧٦ ، ٥٥٩ .

استقرّ الصفدى فى دمشق ، منذ ذلك التاريخ ، واتخذها دار مقامه ، ولم يغادرها إلاّ فى فترات قليلة كان يُطْلَب فيها إلى القاهرة ؛ لأداء بعض المهام ، أو للترقية ، ويعود بعدها إلى دمشق فقد تولى كتابة السر فى حلب ، فى سنة ٧٥٩ هـ [١] ثم رجع إلى دمشق على « وكالة بيت المال وتوقيع الدست » [٢] .

شيوخه :

تلمذ الصفدى لعدد كبير من مشاهير علماء عصره ، نذكر منهم : ابن تيمية [٣] ، وابن فضل الله العُمَرِى [٤] ، وتقى الدين السبكى [٥] ، والبندنيجى [٦] ، وغيرهم كثير .

تلاميذه :

تلمذ للصفدى كثير من النابهين ، أذكر منهم :

المحدّث : أحمد بن على بن محمد بن أبى الفتح ، نور الدين ، الدمشقى ، نزيل حلب (ت ٨٠٤ هـ) [٧] .

---

(١) أعيان العصر ١ / ١٢٩ . (٢) نفسه ٤ / ٣١١ ، و٥ / ٣١٤ .

(٣) أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، تقى الدين ، الحرانى (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) فقيه ، مفسر ، أصولى ، وأحد العلماء المجتهدين .

انظر : الوافى بالوفيات ٧ / ١٥ ، وأعيان العصر ١ / ٢٣٣ ، والمنهل الاصافى ١ / ٣٥٨ ، والأعلام ١ / ١٤٤ ، ومعجم المؤلفين ١ / ٢١٦ ، و١٣ / ٣٦١ .

(٤) أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلّى بن دعجان ، شهاب الدين ، القرشى العدوى ، العمرى ، الدمشقى (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) شاعر ، أديب ، من كتاب الإنشاء .انظر : الوافى بالوفيات ٨ / ٢٥٢ ، وأعيان العصر ٤١٧/١ ، ووفيات السلامى ٢٨٣/١ ، والمنهل الصافى ٢ / ٢٦١ .

(٥) أبو الحسن ، على بن عبد الكافى بن على بن تمّام الأنصارى ، الخزرجى (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ) قاضى قضاة الشافعية ، حافظ ، فقيه ، مفسر ، مقرئ ، أصولى ، أديب ، شاعر ، شيخ الإسلام فى عصره . انظر :

الوافى بالوفيات ٢١ / ٢٥٣ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٨٨ ، ودرة الحجال ٣ / ٢١٨ وعصر سلاطين المماليك ٣ / ٢٧٧ ، والأعلام ٤ / ٣٠٢ .

(٦) أبو الحسن ، على بن محمد بن ممدود بن جامع ، شمس الدين ، البغدادى (٦٤٣ - ٧٣٦هـ) محدث ، متصوف . انظر : ذيول العبر ١٨٩ ، والوافى بالوفيات ٢٢ / ١٤١ ، وأعيان العصر ٣/ ٥١٥، ولذة السمع ٢٤ ، و١٤٧ ، والبداية والنهاية ١٤ / ١٧٤ ، والدرر الكامنة ٣ / ١١٩ .

(٧) انظر : إنباء الغمر (القاهرة) ٢ / ٢١٠ .

obeikandl.com

الموصلى : الحسين بن على بن أبى بكر بن محمد ، بهاء الدين ، الحنبلى (٦٩٠ - ٧٥٩ هـ) شيخ الحديث بالعساكرية ، وهو شاعر أديب ، له قدرة على حلّ الألغاز ونظمها ، وكان يحب نظم الضوابط [١] .

نجم الدين الدِّهْلى : أبو الخير ، سعيد بن عبد الله ، الحنبلى الهلالى الحريرى صنعة (٧١٢ - ٧٤٩ هـ) وكان يعرف التراجم والوفيات ، ومن تصانيفه : كتاب « تفتت الأكباد فى واقعة بغداد » ، و « الرحلة الثانية إلى مصر » [٢] .

مذهبه :

تكاد تجمع كتب التراجم على أنّ الصفدى شافعىّ المذهب [٣] وبالرغم من ذلك ؛ فإنّى أراه يميل إلى الظاهريّة ميلا واضحا ، وبخاصّة فى آرائه النقدية ، والنحويّة [٤] .

أخلاقه وصفاته :

وَصَفَه أصدقاؤه بأنّه : الكامل ، المشارك فى الفضائل ، إليه المنتهى فى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، محبب إلى الناس ، حسن المعاشرة ، جميل المودّة ، عظيم المروءة ، حافظ للعهد ، يراسل أصحابه ومعارفه إنْ بعدوا عنه ، ويسأل عنهم ، ويتفقّد أحوالهم ، وتقوى رابطة الإسلام بينه وبينهم إن قربوا منه [٥] .

وقد أشاد أساتذته بتوقُّد ذهنه ، وحدّة ذكائه ، وشدّة نشاطه [٦] ، فيه تواضع

---

(١) انظر : الوافى بالوفيات ١٥ / ٢٣٣ ، وأعيان العصر ٢ / ٢٧٧ ، والدرر الكامنة ٢ / ٥٩ .

(٢) انظر : ذيول العبر ٢٧٧ ، والوافى بالوفيات ١٥ / ٢٣٣ ، وأعيان العصر ٢ / ٤٠٨ ، ووفيات السلامى ١ / ٢٨٢ ، والدرر الكامنة ٢ / ١٣٤ ، وشذرات الذهب ٥ / ١٦٣ .

(٣) وهم كارل بروكلمان - هو ، أو مترجم كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » - فذكر فى صفحة ٣٦٩ أنّ الصفدى مؤلف أحد الكتب الشهيرة المعتمدة فى الفقه المالكى ؛ فخلط بين الصفدى وبين خليل بن إسحاق المالكى ، كما خلط ابن القاضى بين الصفدى وخليل بن كيكلدى .

انظر : درة الحجال ١ / ٢٥٨ .

(٤) يراجع الباب الأول من دراستى عنه « الصفدى وآثاره فى الأدب والنقد » وهى رسالة دكتوراه فى كلية الآداب جامعة عين شمس .

(٥) انظر : الدرر الكامنة ٢ / ٨٧ - ٨٨

(٦) انظر : الوافى بالوفيات ٧ / ٢٠ - ٢٢ .

العلماء ، يسأل أهل العلم عمّا يحتاج إليه فى كتبه من فقه ، وحديث ، وأصول ، ونحو [1] ، وكان - إلى جانب ذلك - بليغا ، فصيحا [2] .

وإذا كنّا لا نجد وصفا له فى هيئته ، ومظهره ، فى التراجم التى بين أيدينا نفترض فيه - باعتباره كاتبا من أبرز كتّاب الدواوين - أنْ يكون متّصفا بالصفات اللازمة لمن يتولّى الكتابة فى ديوان الإنشاء ، متحلّيا بأخلاقهم ، وهى : أنْ يكون صبيح الوجْه ، فصيح الألفاظ ، طليق اللسان ، أصيلا فى قَوْمِه ، رَفِيعًا فى حَيّه ، وقورا ، حليما ، مُؤْثِرًا للجد على الهزل ، مهيب المجلس .... إلى غير ذلك [3] ، وكل ما نعرفه عنه أنّه ثَقُل سمعه فى آخر عمره [4] .

تديّنه :

يكثر فى كتب الصفدى شعر المجون ، وحكاياته ، له ولغيره وله الكثير - من الشعر ، والمقامات - فى التغزل بالغلمان ، وقد تثير هذه الأشياء سؤالا عن سلوكه الأخلاقى ، والتزامه الدينى ، وبخاصّة أنّه أمير من أمراء المماليك ذوى الثراء والنفوذ ، وقد عرف عنهم الكثير من الانحلال الأخلاقى والانحراف عن الدين .

من المرجَّح أنّ الصفدى كان من أعفّ الناس فرجا ، وأقومهم سلوكا ، وأكثرهم تحلّيا بالفضائل ؛ فما سمعنا عنه شائبة - على كثرة حسّاده ، ومنافسيه ، وشانئيه - تسىء إليه ، ولا ذُكر عنه خطأ وقع فيه ، وما مجونه - فى الحقيقة - إلاّ مجاراة لأدباء عصره ، والمشاهير منهم ، وبخاصة علماء الحديث ، والقضاة ؛ فلا تخلو ترجماتهم من شعر لهم فى المجون ، وهى ظاهرة فاشية ، فى ذلك العصر .

ومن المرجَّح أيضا أنّ الصفدى كان صحيح العقيدة ، كثير العبادة ، حافظا للقرآن الكريم ، راويا للحديث الشريف ، بل إنّه لبس خرقة التصوف من الشيخ

---

(١) انظر : طبقات الشافعيّة الكبرى ١٠ / ٥ .

(٢) انظر : الوافى بالوفيات ٤ / ١٩٣ .

(٣) انظر : صبح الأعشى ١ / ١٠٤ ، وبهذه الصفات وصفه ابن القاضى فى درة الحجال ، وزاد قوله : « وكان يواسى طلبة العلم كثيرا » .
انظر : درة الحجال ١ / ٢٥٨ .

(٤) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧ .

موسى بن أحمد ، مجد الدين الأقصرائى ، شيخ الشيوخ بسرياقوس ، وساق سلسلة الشيوخ المريدين بسند متصل ، إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ [1] ، ويبدو أنّ التصوُّف عنده عقيدة وسلوك ، وليس شعوذة واتكاليّة ، أو مظهرا خادعا مضلّلا .

وفاته :

توفى بالطاعون ، ليلة الأحد ، العاشر من شوّال ، من سنة ٧٦٤ هـ ، فى دمشق ، ودفن بالصوفيّة [2] ، رحمه الله تعالى .

مؤلفاته :

يعد الصفدى من المكثرين فى التأليف ، ونسب إليه خطأ كتب كثيرة ليست له [3] ، وأشهر كتبه الموجودة هى :

١ - اختراع الخراع فى مخالفة النقل والطباع : وهى مقامة فيها تهكّم وسخرية بالجهال الذين يدّعون العلم ، مخطوط .

٢ - أعيان العصر وأعوان النصر : ترجم فيه أشهر رجالات القرن الثامن الهجرى ، حقق وطبع فى دمشق .

٣ - ألحان السواجع بين البادى والمراجع : يضم رسائل بينه وبين معاصريه ، حقق وطبع فى القاهرة ، والكويت .

٤ - أمراء دمشق فى الإسلام : أرجوزة فى التاريخ ، حققت وطبعت فى دمشق ، وأعيد طبعها فى بيروت .

٥ - الانتصار لابن سناء الملك ، حققه الأستاذ هلال ناجى ، ود / ظمياء محمد عباس ، ويطبع فى بيروت ، الآن .

---

(١) نفسه : ٥ / ٤٧٥ .

(٢) يراجع فى ترجمة الصفدى - زيادة على المصادر المذكورة فى الحواشى السابقة - روضات الجنات ٧١٧ ، وتاريخ الأدب العربى ، لجورجى زيدان ٣/ ١٦١ ، واكتفاء القنوع ٣٤٥ ، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة ٢ / ١٢١٠ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى ٢٨٢ ، والقاموس الإسلامى ٤ / ٢٨٣ ، ومنتخبات التواريخ لدمشق ٢ / ٥٤٢ ، ومعجم المؤلفين ٤ / ١١٤ .

(٣) يراجع الباب الثانى من كتابى « الصفدى وآثاره فى الأدب والنقد » .

٦ – تحفة ذوى الألباب فى من حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب : وهو شرح لأرجوزته ، حقق وطبع فى دمشق .

٧ – التذكرة الصفدية : مذكرات جامعة فى الأدب والتاريخ والنقد ، وفيها تلخيص لبعض الكتب ، واختيارات من دواوين الشعراء ، منها أجزاء مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وغيرها .

٨ – تصحيح التصحيف وتحرير التحريف : كتاب فى اللغة ، حقق وطبع فى القاهرة .

٩ – تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون : شرح فيه رسالة ابن زيدون الجدّية ، حقق وطبع فى القاهرة .

١٠ – توشيع التوشيح : كتاب فى النقد والأدب : حقق وطبع فى بيروت .

١١ – جلوة المذاكرة فى خلوة المحاضرة : كتاب فى النقد والأدب ، منه مخطوط فى دار الكتب المصرية .

* الدراسة – الفصل الأول

١٢ – جنان الجناس : كتاب فى البلاغة ، طبع فى القسطنطينية ، وأعيدطبعه فى بيروت على صورته غير المحققة ، بزيادة شروح غير دقيقة عليه .

١٣ – الروض الباسم والعرف الناسم : وهو مجموعة من شعر الصفدى مبوّبة بحسب الموضوعات ، وهو مخطوط ، حققته ، وهو معد للنشر الآن .

١٤ – الشعور بالعور : فيه تراجم العور ، حقق وطبع فى الأردن .

١٥ – صرف العين وعرض العين فى وصف العين : كتاب فى الأدب ، حققته ضمن رسالتى للدكتوراه فى كلية الآداب جامعة عين شمس .

١٦ – طرد السبع عن سرد السبع : كتاب فى الأدب ، مخطوط ١٧ – عبرة اللبيب بعثرة الكئيب : وتعرف – أيضا – باسم « المقامة الأيبكية » ، منها مخطوطتان فى دار الكتب المصرية .

١٨ – غوامض الصحاح : كتاب فى اللغة ، حقق وطبع فى الكويت ، وأعيد طبعه فى بيروت .

١٩ – غيث الأدب الذى انسجم فى شرح لامية العجم : شرح لامية الطغرائى ،

طبع فى القاهرة ، والإسكندرية ، وأعيد طبعه فى بيروت ، وكلها طبعات غير محققة .

٢٠ - فض الختام عن التورية والاستخدام : كتاب فى البلاغة ، حـقق وطبع فى القاهرة .

٢١ - الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه ، حقق وطبع فى بريطانيا .

٢٢ - كشف الحال فى وصف الخال : كتاب فى الأدب ، مخطوط .

٢٣ - كشف السر المبهم فى لزوم ما لا يلزم : كتاب فى البلاغة حـــــقق فى الجامعة السورية ، ولم يطبع بعد .

٢٤ - لذة السمع فى صفة الدمع : كتاب فى الأدب ، حققته وهو معد للنشر الآن .

٢٥ - نصرة الثائر على المثل الثائر : كتاب فى النقد ، حقق وطبع فى دمشق .

٢٦ - نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم ، كتاب فى اللغة ، حقق فى دار العلوم بالقاهرة ، ولم يطبع بعد .

٢٧ - نكت الهميان فى نكت العميان : كتاب فى التراجم ، حقق وطبع فى القاهرة .

٢٨ - الهول المعجب فى القول الموجب : وهو كتابنا هذا .

٢٩ - الوافى بالوفيات : أوسع الكتب العربية فى التراجم ، تتولى نشره جمعية المستشرقين فى ألمانيا ، وطبع منه إلى الآن ٢٤ جزءا .